# الرجل الْخَرَاب، مُتعة النّص وحريّة الكتابة

منهل حكر الدور [1]

نشرتُ أكثر من مرّة على صفحتي في (فيسبوك)، وكتبتُ في أماكن أُخرى، وردّدنا في جلساتنا النقاشية حول الكُتب والروايات، دستور عبد العزيز بركة ساكن للآراء وهو ما ذُكر في إقراره في أولى صفحات روايته البديعة الموسومة «بمخيلة الخندريس» وهو )...إن الآراء في قاموسي أربعة: آراء خيِّرة، آراء شريرة، آراء خيرة وشريرة، آراء لا خيرة ولا شريرة.....) طبعاً كما هو معروف ومؤكد، لا توجد آراء بين بين... فالرأيان الأولان هما رأيان قد يصدران من الكاتب الأول في هذه الحالة هو شخصي الضعيف، أما الرأيان الأخيران فهما رأيا القارئ الذي لسوء حظه يتطلّع الي الرأيين الأولين)، انتهى الاقتباس من رواية مُخيلة الخندريس. مما لا شك فيه أن بركة ساكن قصدَ بهذا الكلام الذي – أطلقت عليه أنا دستور، لأن بنوده تسمح لي أن أطلق عليه ما أريد – أقول، إنه قصدَ بأن تأويل وفَهم النصوص يُعَبِّر عن أفكار القارئ، والقارئ من يتحمّل مسئوليتها

(1) روائي وناقد سوداني.

والدفاع عنها، لذلك ستجيء قراءتي لرواية «الرجل الخراب» منطلقةً من هذه المسئولية. رواية الرجل الخراب رواية حافلة بالأحداث والإحساس وبالأشخاص والإخلاص، والعديد من وجهات النظر. وأنت تطالعها تتداعى ذاكرتك، وذلك من وجهات النظر المتعددة والمشاعر المبعثرة للرّواة، وكل شخصية تُعبِّر عن أحاسيسها وأفاعيلها بنفسها، وأرى في ذلك تيار الوعي **Stream of Consciousness** وهي طريقة المحدثين في تقديم شخصياتهم السرديّة وتحليلها ورسم ملامحها، وهذا بطبيعة الحال يلقي بالأضواء الكاشفة على الحياة الداخلية والخاصة للشخوص بعيداً عن النمذجة والتنميط، وأي نموذج ينتفع به بركة ساكن؟، وهو الذي ينتهج التجريب والتجديد والحداثة، وما التجريب غير إنه تيار يدعم حريّة المُبدع في تعامله مع إبداعه، وهو نفّاج يخرجُ ينفذ خلاله من نمط الجداول والقوالب الجاهزة. وبالفعل إن العقل المستقِل ليرتاح إلى التجديد والطرائق الإبداعية التي إذا ما طُبِّقت أدواتها بَلَغَ بها الكاتب مراده، وحصدَ منها القارىء متعةَ التلقّي، وهذا يعني لي بأن إبداعات بركة ساكن هي عصيّة على سطوة النُقاد الكلاسيكيين، وأقتبس ما قاله بشأن هذا العصيان في عمق نص رواية «الرجل الخراب» )..... كما أن ذلك سيورّط النص الأدبي فيما يسميه بعض النقاد الكلاسيكيين الحَرفيين، الخروج المريع وغير المُبرر فنياً عن الخط العام للتحقق السردي).

عندما تُمسك بتلابيب أية رواية تجد نفسك أمام ثلاثة أشخاص؛ المؤلف، السّارد أو الراوي والقارئ. والراوي إذا أردنا تعريفه بكلمات بسيطة وخالية

من التعقيد هو: الشخص الذي يسرد الحكاية وهو من اختراع المؤلف. البعض يطلق على السارد وصف الكاتب الضمني **Implied author**، وفي الغالب الراوي دائماً شخصية هلامية يصنعها الكاتب، إلا أن الراوي عند بركة ساكن راوٍ له روح ورائحه وظل، ويمشي في الأسواق ويتحرّش ويغازل ويغضب. في القرن التاسع عشر تبنَّى فلوبير الرأي القائل: بأن المؤلف ينبغي ألا يُطلَّ من بين السطور مخاطباً القارئ مباشرة، وهذا يُعَد عيباً ومأخذاً على الروائي، أي يجب أن يقوم الراوي بالفعل السردي نيابةً عن الكاتب. حتماً في أي رواية كُتبت بهذه الطريقة نكاد ننسى المؤلف تماماً، ولكن من الذي ينسى عبد العزيز بركة ساكن؟ وأنت تقرأ رواية الرجل الخراب تجده واقعاً يمشي في النص ويضفي عليه وميضاً ولمعاناً، تجده في رواية «الرجل الخراب» متصوراً في الشوارع والممرات، تجده عند نهر «سالساخ»، وشارع جترايدقاسا، ولابد أن مرَّ بمحطة فستبانهوف في غرب فيينا.

وتجده صوتاً مقوّماً ومعدّلاً وساخراً. والقول التالي له )...بالطبع ستجد القارئة والقارئ الكريمان معلومات كثيرة تُناقض المعلومات التي ذُكرت في الجزء السالف من الرواية؛ أي الجزء الذي رواه الراوي مشكوراً، وتدخل الراوئي – أي شخصي الضعيف – كثيراً في بعض الثيمات. وهو تدخل مُخل في أغلبه، إذا لم يتسامح معه القارئ الصارم الذي يبحث عن حقيقة ثابتة لا يمكن التلاعب بها أو فيها.....). وأردف كاتباً إن الأمر متروك للقارئ المُرائي المُغامر الصعلوك).... وهذا يَرُدّنا رداً جميلاً إلى الدستور الذي بدأت

به هذه القراءة المتواضعة. فمن منكم يحب المغامرة والصعلكة والتمرُّد على النموذج؟. أنا أدوّن اسمي في أعلى القائمة ففي التجريب متعتي والانفكاك من النموذج، وفي العوالم الحرّة أَجِد الارتياح الكامل. فطرائق الكتابة وتقنياتها وميول القارئ الإنسان ما زالت لغزاً، وإن علم فن الرواية مازال الإنسان يقف أمام أبواب سره المغلف حائراً. ولكن المطلوب أن يتواصل المد الإبداعي وقطعاً ليس هنالك ميثاق موقّع بين القارئ والكاتب على فهمٍ واحد، فالنص يقبل التأويل كما قيل.

رواية الرجل الخراب، رواية حافلة بشخوص نشطة وعوالم خلّابة وأمكنة مدهشة. تماماً شعرتُ بأنني أقف جنباً إلى جنب مع الشاب السعودي وصديقته أمام مرسم «نورا» وهي تبيع رسوماتها للسُيّاح، وأستطيع تخيّل «إيتنشتاين» **Einstein**؛ تلكم الصخرة القاسية التي سقطت منها «لوديا» في عيد ميلادها الخمسين: «وإن جَوقة جنازتها أخذت تعزف مارشاتها الأولى وهي في الخمسين من عمرها».

* شخصية درويش أو هاينريش **Heinrich**؛ هو شاب سوداني من أم مصرية وفِي رفقته الشابة الرواندية الفاتنة. الاثنان معاً كانا مثالاً حيّاً للمعاناة التي يواجهها الشباب الإفريقي من أجل أن يدرك الضفة الأخرى من المتوسط، حيث فردوس النعيم المتوهّم.

* درويش، الطبيب الصيدلي الذي يعمل مُخَرِّ للكلاب هو يشير بشكل صادق إلى جمهور عريض من الشباب والشابات الطموحين الذين يقصدون أوروبا بحثاً عن حياة أفضل، وعندما يصطدمون بالواقع هناك يتحوّل

المهندس لعامل في محطات تعبئة وقود السيارات، والمؤهل إلى حارس عقار، والمحطوظ من يعمل سائق تاكسي، ولكن ما عملَ المهندس عاملاً، والطبيب في مهنة هامشية إلاّ لأن البلدان طاردة وظالمة، والسلطان ظالم ولا يأبه بأمر شعبه حتى لو تعثّر فيلٌ على مرمى من قصره المنيف، وإن لم تنجو ببدنك يُصادر منك كل شيء حتى المعرفة.

درويش - كَثُرَ الحديث عنه، أليس كذلك؟، لما لا؛ فهو الشخصية الأساسية في الرواية، باختصار فدرويش هو شاب سوداني من أم مصريّة وسافرَ بجوار سفر يوناني مزوّر إلى اليونان، وعبر التهريب وصلَ إلى النمسا وظلّ يتابع أمر منحه اللجوء السياسي، لكن الأسباب التي قدمها لدائرة الهجرة، صُنفت بأنها أسبابٌ الغرض منها اقتصادي وتمّ رفض طلبه، وظلّ يعمل مع سيّدة تدعا «لُوديا» في وظيفة مُخرّي كلاب، وقبل مماتها كتبت له الشقة والسيارة باسمه باعتبار أن ابنتها كانت تعيش بعيداً عنها، ولكنه أحضرها -درويش- قبل أيام من وفاة والدتها، وتزوجها بعد ذلك بغرض توفيق أوضاعه القانونية في البلد، وأنجبا بنتاً أسمياها «ميمي»، وعندما كبرت البنت ووصلت سن العشق، تحرّكت إنزيمات التناقض في الرجل وصَعُبَ عليه أن يستوعب فكرة أن يكون مع ابنته عشيق يدخل عليها في غرفتها في البيت، لم يقتنع مطلقاً عندما قالت له إن عشيقها قد أسلم، وبعد أحداث وتفاصيل داخل النص فإن درويش دفعَ عشيق ابنته من أعلى جبل نحو الهاوية ولكنه تشبثَ بشجرة قبل أن يصل الهاوية، ولكن درويش كان أسرع من عشيق ابنته نحو الهاوية، ربما دفعته زوجته أو قد يكون قفزَ

من تلقاء نفسه رغبةً في الانتحار. هنا يتبدى لي بأن الأفكار التي لا تقبل الآخر أو تفكر في الخلاص منه هي ميّتة ومنتحرة لا محالة. في هذه الرواية، لا شك، تتجلى الفوارق الاجتماعية والثقافية التي يواجهها العرب والمسلمين في أوروبا على الرغم من أن البعض يوهِم الناس بأنه متسامح ومُقر بثقافة قبول الآخر ويستطيع أن يتعايش مع المجتمع الأوروبي، ولكن عندما يصل الأمر إلى ابنته أو زوجته –وليس بالضرورة دينه– حينها يظهر التناقض. لو قرأتم الرواية ستجدون أن المدعو درويش يسكر ويعربد ويُعاشر النساء خارِج عش الزوجية، بل وصل به الأمر أن يمنع ابنته من دروس التربية الإسلامية، وما إن يظهر هذا التناقض حتى يلوح الخراب في وَضح النهار ويصبح الرّجُل خراباً.